الرد على الأشاعرة والمعتزلة

للعلامة الشيخ

محمد أمان الجامي

رحمه الله

اليوم نتكلم على أحد الأصلين اللذين عليهما وعلى الخاتمتين بعدهما بنى شيخ الإسلام ابن تيمية رسالته التدمرية، فمهدنا للكلام على الأصلين بأن قسمنا الناس في باب الأسماء والصفات إلى أقسام.

قلنا: القسمة العقلية تقتضي كالآتي:

أولًا: فريقٌ أثبت ما أثبت الله لنفسه في كتابه، وما أثبت له رسوله صلى الله عليه وسلم في السنة الصحيحة من الأسماء والصفات على ما يليق بالله تعالى، هؤلاء هم سلف هذه الأمة ومن تبعهم إلى يوم الدين، هؤلاء منهجهم واضح، لأنهم لا يتكلفون، يثبتون ما أثبت الله على مراد الله من الأسماء والصفات، ويثبتون ما أثبته رسوله صلى الله عليه وسلم أيضًا من الأسماء والصفات على مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والنقطة المهمة التي ينبغي أن يعرفها طالب العلم: عند أهل السنة والجماعة لا فرق بين ما ثبت بالكتاب وبين ما ثبت بالسنة، وقد تثبت بعض الصفات بالكتاب والسنة معًا، وقد تثبت بعض الصفات بالكتاب وحده، وقد تثبت بعض الصفات في السنة المطهرة وحدها وليس لها ذكرٌ في الكتاب. أهل السنة بما فيهم الأئمة الأربعة لا يفرقون بين الكتاب والسنة؛ بمعنى إذا ثبتت صفةٌ من الصفات بالسنة المطهرة ولم يرد ذكرها في الكتاب لا يتوقفون فيها ولا يوقفون القول بها على ورود تلك الصفة في الكتاب، بل طالما ثبت في السنة الصحيحة، ما ثبت بالسنة هو كالصفات التي ثبتت بالكتاب ولا فرق، ولا يشترط التواتر، هذه كذلك نقطة مهمة، لا كما يزعم علماء الكلام ومن تأثر بعلماء الكلام من بعض الأصوليين من اشتراط التواتر للسنة في باب العقيدة، هذا اشتراطٌ لا أساس له، بل الصحيح ثبوت السنة، إذا ثبتت السنة يُحتج بها وتثبت بها صفات الله تعالى.

ولعلكم تحفظون كثيرًا من الصفات التي ثبتت بالسنة ولم يأتِ ذكرها في الكتاب، من ذلكم صفة نزول الرب سبحانه وتعالى في آخر كل ليلةٍ إلى سماء الدنيا كما يليق به، حيث يقول: **"هل من مستغفرٍ فأغفر له.... إلى آخر الحديث"**، ومن ذلكم صفة الفرح وغيرها

كثيرة الصفات التي ثبتت بالسنة، نحن نؤمن بها، لا فرق عندنا بين ما ثبت بالكتاب وما ثبت بالسنة، لذلك المسألة واضحة بالنسبة لمنهج السلف، مسألة بحث التواتر، ومن منكم أراد أن يتأكد ويتثبت عليه أن يرجع إلى رسالة الإمام الشافعي رحمه الله حيث أثبت أن اشتراط التواتر لا أصل له، إنما المهم ثبوت السنة، السنة الثابتة يُستدل بها في العقيدة كما يستدل بها في الفروع والأحكام، هذا المعنى تجدونه منصوصًا عليه في رسالة الإمام الشافعي، وهو من تعرفونه ولستُ بحاجةٍ لأقول عنه شيئًا، الكل يعرفه.

هذا موقف أهل السنة، وهو في غاية الوضوح.

من الأصلين اللذين مهدنا لهما في الدرس السابق ولا نزال في التمهيد، منهما القول بأن الكلام في بعض الصفات كالكلام في البعض الآخر. الأصل الأول: الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات يحذو حذوه، الأصل الثاني: الكلام في بعض الصفات كالكلام في البعض الآخر يحذو حذوه، هذان سماهما شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته التدمرية "أصلين"، فنحن نبدأ اليوم بالأصل الثاني، وإنما اخترنا الأصل الثاني، وهو القول: إن الكلام في بعض الصفات كالكلام في البعض الآخر، نختار هذا لأن هذا الأصل يُناقَش على ضوئه الأشاعرة، والأشاعرة هم أكثر الناس وجودًا في عالمنا الإسلامي، ولعلهم أكثر الناس وجودًا كذلك في زملائنا الطلبة، أقصد أن بعض الطلاب أو أكثرهم ربما درسوا هذه العقيدة الأشعرية، ومن درسها ثم منَّ الله عليه بأن يطلع على هذا المنهج الذي يدرسه الآن وهو منهج السلف الصالح عليه أن يعرف ويعيد إلى ذاكرته العقيدة الأشعرية ليقارن بينها وبين ما يدرسه، ليأخذ الحق ويترك الباطل على بصيرة، هذا شأن طلاب العلم، طالب العلم يهتم بشأن العقيدة كل الاهتمام.

إذًا نقول: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر، نوجه هذا الكلام إلى الأشاعرة، لأنهم أثبتوا وجود الله (أثبتوا الذات)، وآمنوا بذات الله العلية كما يليق بها بدون بحثٍ عن الكيفية والكنه والحقيقة كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ثم إنهم لما وصلوا

عند الصفة تصرفوا تصرفًا عجيبًا حيث قسموا الصفات إلى قسمين؛ قسمٌ يجب الإيمان به وإثباته على ما يليق بالله دون تشبيهٍ في الإثبات ودون تعطيلٍ في التنزيه، هذا الكلام كلامٌ صحيح وموقفٌ سليم وافقوا بهذا أهل السنة والجماعة، إلا أنهم خالفوا أهل السنة والجماعة بالنسبة للبعض الآخر من الصفات زعموا أن الصفات تنقسم إلى صفاتٍ عقلية وصفاتٍ خبرية؛ الصفات العقلية التي في الإمكان أن يدرك الإنسان أو يثبتها بعقله حتى لو لم يرد النص، لو لم يرد الخبر عن الله وعن رسول الله عليه الصلاة والسلام، هذه الصفة سموها الصفات العقلية، فقالوا: يجب إثباتها بالأدلة العقلية، وإن وُجدت أدلةٌ نقلية تُذكر من باب الاستئناس بها ومن باب تأييد الأدلة العقلية بها –أي بالأدلة النقلية– على أساس أنها هي العمدة يُعتمد عليها في هذا الباب، بل الاعتماد على الأدلة العقلية.

لذلك اختارت الأشاعرة الصفات التالية فأثبتوها: القدرة والإرادة، والسمع والبصر، والعلم، والحياة، هذه الصفات أطلقوا عليها صفات المعاني؛ صفات المعاني تُثبت بالأدلة العقلية لأن وجود هذا الكون على غير مثالٍ سابق، وهذا النظام البديع يدل على قدرة الله تعالى، إذًا إنه موصوفٌ بالقدرة، وتخصيص كل مخلوقٍ على ما هو عليه يدل على صفة الإرادة إذًا فهو مريد، هذا الإحكام في هذا الصنع يدل على علم الصانع إذًا فهو عليم، ومن اتصف بالقدرة والإرادة والعلم يجب أن يتصف بالسمع والبصر والحياة وكذلك الكلام، بهذه الطريقة أثبتوا صفات المعاني، الصفات السبع التي سموها صفات المعاني، ثم استنتجوا فأخذوا من هذه الصفات صفات أخرى سموها الصفات المعنوية وهي التي تسمى عند أبي هاشم المعتزلي الأحوال، وهي قولهم: كونه قادرًا، كونه مريدًا، كونه سميعًا بصيرًا عليمًا متكلمًا، هذه الصفات –وهي في الواقع أسماء–، إطلاق الصفة عليها إطلاقٌ فيه تسامح، هذه أسماء تدل على تلك الصفات السبع، ولكن من ناحية اصطلاحهم هم سموا الصفات المعنوية، هذه سبعة وتلك سبعة.

ثم أثبتوا صفاتٍ سموها الصفات السلبية وهي خمس صفات على اصطلاحهم: البقاء والقدم ومخالفته للحوادث وقيامه بنفسه والوحدانية، هذه سموها الصفات السلبية، بمعنى أنها تسلب عن الله ما لا يليق به، وليست الصفات السلبية عند الأشاعرة هنا كالسلوب التي عند الجهمية؛ السلوب عند الجهمية الذين يصفون الله تعالى بالسلوب المحض، السلوب التي لا تتضمن مدحًا ولا تنزيهًا، كقولهم: ليس به جسمٌ ولا عرضٌ ولا طولٌ ولا قصرٍ... إلى آخر تلكم السلوب التي تدل على أن القوم لا يقدرون الله تعالى حق قدره.

أما الصفات السلبية التي عند الأشاعرة غير تلك السلوب، وهي خمس صفاتٍ اصطلحوا عليها أنها صفاتٌ سلبية؛ بمعنى أنها بذاتها بدون أن يدخل عليها حرف نفي تنفي وتسلب عن الله تعالى ما لا يليق به، كالفناء والحدوث ومشابهة الحوادث وعدم الغنى المطلق والتعدد، هذه أضداد للصفات السلبية. ثم قبل ذلك عندهم أطلقوا على صفة الوجود الصفة النفسية، وجود الله، كونه واجب الوجود أطلقوا على هذه الصفة صفة نفسية.

هذه الصفات يجب معرفتها عندهم بأضدادها، وبأدلتها العقلية، حتى يصبح الإنسان مؤمنًا، زد على ذلك صفات الرسل الأربع التي منها: الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة بأضدادها، وما يجوز في حقهم من الأعراض البشرية، والجائز في حق الله تعالى من الإيجاد والإعدام، هذه خمسون عقيدة، خمسون عقيدة عند الأشاعرة من لم يعرفها بأدلتها ليس بمؤمن، انتبهوا لأنفسكم؛ الأشاعرة لا يحكمون عليكم بالكفر، عند الأشاعرة من لا يحفظ خمسين عقيدة بأدلتها ليس بمؤمن. ما الذي أوجب عندكم إثبات هذه الصفات على أننا لا نسلم في بعضها أنها صفات وإنما هي أسماء، بل في بعضها لا نسلم أنها من أسماء الله تعالى كالقديم؟ فالقديم ليس من أسماء الله الحسنى، ولكنه بمعنى الأول الذي ليس قبله شيء، كما أن البقاء هو بمعنى الآخر الذي بعده شيء، ومخالفته للحوادث بمعنى ليس كمثله شيء، وقيامه بنفسه بمعنى الغنى المطلق، فنحن نفصل لهم تفصيلاً حتى يصح إثبات هذه

الصفات موافقةً لما جاء في الكتاب والسنة، لا بأس ممكن أن نقول أن هذه التسمية وهذا التقسيم اصطلاحي، ولا مشاحة في الاصطلاح.

إنما النقطة المهمة التي يجب أن نناقش الأشاعرة فيها: بأي كتابٍ وبأية سنةٍ فرقتم بين ما أثبت الله لنفسه، أوجبتم إثبات بعض الصفات وادعيتم وجوب التأويل في البعض الآخر؟

تعال إلى المثال، الإرادة صفةٌ من صفات الله، اتفق السلف والخلف على إثبات الإرادة، لكن المحبة قالوا: لا، لا نصف الله بالمحبة، ولا بالكراهة، أو الغضب والبغض، والفرح، لماذا؟ بل يجب تأويل هذه الصفات، بينما لم يوجبوا تأويل صفة الإرادة مثلاً، لماذا؟ هذه الصفات التي أوجبوا تأويلها مثل الغضب والمحبة والفرح قالوا فيها إنها انفعالاتٌ نفسية، والانفعالات النفسية لا تليق بالله؛ لأن الغضب مثلاً غليان دم القلب عند إثارة الانتقام، قالوا: هذا لا يليق بالله، بينما صفة الغضب ثابتةٌ بالكتاب والسنة، قالوا: لا، يجب تأويلها، بم؟ يعني غضب الله عليهم أي أراد انتقامهم، معنى الغضب إرادة الانتقام، ومعنى المحبة إرادة الإنعام، ومعنى الرحمة إرادة الإنعام. إذًا هذه الصفات كلها فسروها بصفةٍ واحدة وهي صفة الإرادة، تعال ما هي الإرادة؟ قالوا: أما إرادة الله فلا نعلم حقيقتها، لكن ما هي الإرادة في حق المخلوق؟ الميل إلى ما فيه النفع، ميلك إلى ما فيه نفعك ومصلحتك هذه الإرادة، لماذا لم تؤولوا؟ لأن الميل مستحيل في حق الله، كما أن الانفعال بالغضب، الانفعال بالرحمة، الانفعال بالفرح مستحيل.

مقتضى هذا أن تكون صفة الإرادة مستحيلة، حتى تُؤول، بينما أنتم أولتم الصفات التي رأيتم يجب تأويلها أولتموها بالإرادة، قالوا: لا، الإرادة هذه التي هي ميل النفس ليست هذه هي صفة الله، ولكن تلك إرادةٌ تليق بالله.

فنحن نقول لهم: صفة الفرح، وصفة الرحمة، وصفحة المحبة، الغضب، صفاتٌ تليق بالله، أما تعريفكم الصفات التي عرفتموها بالانفعالات هي صفاتنا نحن المخلوقين. أما

إذا أضيف الغضب إلى الله صار غضبًا خاصًا، «**إن الله قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله**» في حديث الشفاعة، «**إن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن**»، ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة: ٥٤]، عند ما تضاف وتُنسب صفةٌ من الصفات هذه الإضافة تخصص ونفهم منها أن فرح الله ليس كفرحنا، وأن غضب الله ليس كغضبنا، الغضب الذي فسرناه بغليان دم القلب، الفرح والمحبة، هذه الصفات التي فسرناها بالانفعالات هي صفاتنا، أما صفة الله لا تستطيع أن تحددها.

نقول للأشاعرة: لا فرق عقلاً ومنطقًا قبل الشرع بين الإرادة وبين المحبة، الكلام في المحبة، في الرضا، في الغضب، في الفرح، كالكلام في القدرة والإرادة والسمع والبصر والعلم وغير ذلك من الصفات التي أثبتموها، لا فرق بين ما أثبتم وبين ما نفيتم، ولكنكم بالغتم هنا في الخمسين عقيدة، ما الدليل على أنه يجب على كل مكلفٍ أن يعرف خمسين عقيدة بأدلتها، بحيث إذا كان لا يعرفها أو عرفها بغير أدلة أنه ليس بمؤمن؟ بمعنى هذا هو الحكم على سواد المسلمين بأنهم كفار، لأن سواد المسلمين، جمهور المسلمين لا يعرفون هذه الخمسين العقيدة.

إذًا المؤمنون عند الأشاعرة مجموعةٌ من طلبة العلم، الذين درسوا هذا المنهج، فحفظوا السنوسية بأدلتها، أو جوهرة التوحيد، أو ما في معنى ذلك من المتون التي تجمع هذه الصفات وتذكر الأدلة العقلية، هؤلاء هم المؤمنون فقط في نظر الأشاعرة، هذا خطأ، قولٌ على الله بغير علم.

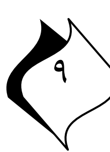
إذًا إذا أردنا أن نطبق هذا الأصل على الأشاعرة نجدهم أخطأوا عدة مرات:

المرة الأولى: التفريق بين ما جمع الله، الله جمع في كتابه، فوصف نفسه مثلاً بالمحبة والرضا والغضب، وبالإرادة: ﴿**فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**﴾ [البروج: ١٦]، وأنتم فرقتم بين هذه الصفات؛ فقلتم الإرادة كما يليق بالله، والقدرة والسمع والبصر، ما الذي فرق بين تلك الصفات وبين التي أوجبتم تأويلها؟ أعتقد أنهم لا جواب لهم إلا التقليد، هكذا قرأنا في

السنوسية وحواشيها، هكذا قرأنا في تحفة المريد، هكذا قال الشيخ، وهل تكفي مثل هذه الإجابة في باب العقيدة؟ لا.

في باب الفروع، لو توضأ إنسانٌ وضوءً على خلاف السنة فقيل له: لماذا؟ قال: هكذا نقلنا من مشايخنا، وهل يغني هذا الجواب؟ في باب الوضوء لا يغني، في القصر. وفي التيمم في أي باب من أبواب الفقه لا يغني جوابٌ كهذا عقلاً ومنطقًا إلا بالنسبة لمن يريد أن يبيع عقله ويكون إمعة، إن أحسن الناس أحسن معهم وإن أساءوا أساء، هذا إن كان قد يُبتلى بهذا الموقف بعض طلاب العلم في الفروع ويُتسامح معهم، فلا ينبغي أن يُتسامح معهم في باب العقيدة، بل يجب أن يُصارحوا ويُنصحوا بأن هذا الموقف الأشعري موقفٌ متناقض يتنافى مع الإيمان الصحيح، فيجب أن نبه على بعض الصفات التي تصرفوا فيها مثل هذا التصرف، أشرنا إلى بعض الصفات الفعلية التي أوجبوا تأويلها وسموها انفعالات ولا يجوز الوصف بها ما لم تُؤول، وضربنا الأمثلة لذلك بالمحبة والرضا والغضب والفرح وما في معناها.

وهناك طامةٌ كبرى وهي صفة الكلام عند الأشاعرة؛ الأشاعرة عند ما عددوا صفات المعاني السبع عدوا منها صفة الكلام، والإنسان الذي يأخذ ظاهر كلامهم قبل أن يدخل معهم في التفاصيل قد يظن بأن الأشاعرة يثبتون صفة الكلام كما يليق بالله تعالى، ولعل صغار الطلبة لا يزالون يعتقدون ذلك الاعتقاد، وليس الأمر كذلك، والناس افترقت في صفة الكلام واختلفت اختلافًا كثيرًا، ولعل اختلاف أهل الكلام في صفة الكلام ذلك الاختلاف الكبير الفظيع، ولعل هذا هو السر في تسمية هذا العلم بعلم الكلام، لا نخوض في التفاصيل عند غير الأشاعرة، إنما نأخذ موقف أهل السنة وموقف الأشاعرة في هذه الصفة، لخطورتها، الأشاعرة يصرحون فيقولون: الله موصوفٌ بصفة الكلام، فيجب أن نؤمن بأن الله متكلم وأن له صفة اسمها صفة الكلام، صفوا لنا هذا الكلام ما هو؟ وهل هذا القرآن الذي نحفظه ونقرأه ونستدل به ونكتبه هو كلام الله؟ قالوا: لا، كلام الله شيءٌ



آخر، القرآن عند الأشاعرة ليس بكلام الله حقيقةً، وإنما يُطلق عليه أنه كلام الله مجازًا، لماذا؟ لأنه إما دالٌ على كلام الله الحقيقي أو عبارةٌ عنه، أو ترجمةٌ له، أما هو فمخلوق.

والعجيب من أمر الأشاعرة أنهم يناقشون المعتزلة فيخطئونهم، عند ما تقول المعتزلة إن معنى كونه تعالى متكلم أي خالقٌ للكلام، هذا قول المعتزلة؛ المعتزلي يستطيع أن يقول: إن الله متكلم ولكنه يفسر تفسيرًا صريحًا واضحًا –وإن كان ضلالًا– حيث يقول: معنى أنه متكلم خالقٌ للكلام، والإخوة الأشاعرة لم يكونوا صرحاء مثل المعتزلة بهذه الصراحة، قالوا: الله متكلم فنصفه بصفة الكلام، ولكن الكلام الذي نعني غير هذا الكلام اللفظي ألا وهو الكلام النفسي. الذي ليس بحرفٍ ولا صوت، أما وصف الله بأنه يتكلم بكلامٍ له حرفٌ وصوت مستحيل لا يليق بالله، الأشعري عند ما يستدل بالآية ألا يقول: قال الله ثم يتلو الآية؟ إذًا ما معنى كلامك عند ما تريد أن تستدل بآيةٍ قرآنيةٍ فتقول: قال الله تعالى: إذا جاء نصر الله؟ يقول: لا ينبغي أن يُصرح في كل مقام بأن هذا القرآن مخلوق، ولكن هذا سرٌ بين الشيخ وبين التلاميذ، يهمس في آذانهم فيقول: اعلموا أن هذا القرآن مخلوق ولكن لا يقال في كل مقام لئلا يُستخف به، لماذا؟ لأنه يجب احترامه لا احترامًا ذاتيًا ولكن لكونه دليلاً على كلام الله الحقيقي النفسي، أو لكونه عبارةً عنه، أو لكونه ترجمةً له، فكلام الله الحقيقي النفسي لو كُشف عنا الحجاب لفهمنا منه من الأحكام كالتحريم والتحليل والنهي والأمر كما نفهم من هذا الكلام اللفظي المجازي الذي يدل على كلام الله، تكون اتفاقيةً سريةً بين الشيخ وبين التلاميذ، لكن أمام الجمهور يقولون: قال الله تعالى فيتلو الآية، فيقول للناس: القرآن كلام الله.

موقفان؛ موقف سري وموقف علني: الموقف السري الذي بين الشيخ وبين التلاميذ هو الحقيقة عندهم، هو الصحيح، لكن الموقف الآخر إنما هي دبلوماسيةٌ لئلا يُمس كلام الله الحقيقي بسبب هذا الكلام الدال على كلام الله تعالى وإلا ليس هو بكلام الله، هذه حقيقة الأشاعرة في صفة الكلام.

ما الفرق إذًا بين الأشاعرة وبين المعتزلة في صفة الكلام؟

خُلْفٌ لفظي غير حقيقي، كلهم يتفقون على أن هذا القرآن الذي نقرأه ونحفظه ونكتبه مخلوقٌ وليس بكلام الله، تتفق الأشاعرة مع المعتزلة على هذا، بل موقف الأشاعرة أخطر لأن موقف المعتزلة واضح، هؤلاء جعلوا من المبررات بأنه ليس بكلام الله أنه يُكتب وأنه يُقرأ وأنه يُسمع، الله وصف كلامه بهذه الصفات وأخبر أنه كلام الله، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩] هذه الآية تدل على أن كلام الله كلمات تُكتب بالأقلام، ويقول الله تعالى لنبيه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، إذًا كلام الله يُقرأ، وكلام الله يُسمع من التالي، عند ما نسمع كلام الله من التالي لكلام الله فالصوت صوت التالي القارئ، ولكن المقروء كلام الله، هذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، الأشاعرة جعلوا كونه كلامًا يُكتب فيُفهم فيُقرأ فيُسمع جعلوا هذا علامة على أنه ليس بكلام الله، تناقضوا مع كتاب الله.

نقول لهم: الكلام في بعض الصفات كالكلام في البعض الآخر، طالما أثبتم الصفات الأخرى على ما يليق بالله غير الكلام، أما الكلام فقد عرفنا موقفكم، ونقول لكم: إن الكلام الذي أثبتموه ليس هو هذا ولكنه كلامٌ نفسي، ما في النفس عند الحقيقة لا يسمى كلام بل يسمى حديث النفس، لأن الله لا يؤاخذ الإنسان بما حدثت به نفسه حتى يتكلم – هكذا في الحديث–، طالما الحديث يتردد في نفس الإنسان يقال له حديث النفس ولا يقال له كلام.

بما استدلت الأشاعرة على أن الكلام هو ما في النفس وليس هذا الكلام المقروء؟

استدلوا بكلام شاعرٍ نصرانيٍ أهل الكلام يختلفون في ثبوت هذا البيت منه؛ "الأخطل النصراني":

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما *** جُعل اللسان على الفؤاد دليلا

الأشاعرة لم يجدوا في كتاب الله ولا في سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يستدلون به على صفة الكلام إلا بيت شعرٍ يُنسب إلى الأخطل النصراني، ويشكون في ثبوته، ويقول بعضهم: ليس لهذا البيت في ديوان الأخطل وجود، بينما القاعدة عندهم: الأدلة اللفظية من الكتاب والسنة أدلةٌ ظنية لا يستدل بها الاستدلال في باب العقيدة حتى يشهد له الدليل العقلي، إذا كنتم ترون أنه لا يُستدل بالكتاب والسنة لكون أدلة الكتاب والسنة أدلة لفظية ظنية كيف ساغ لكم أن تستدلوا ببيتٍ لم يصل إلى حد التواتر، بل لم يثبت من الأخطل نفسه فهو نصرانيٌ غير مسلم؟ تركتم كتاب الله وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام وذهبتم لتستدلوا بكلام نصرانيٍ، ثم الكلام نفسه يختلف علماء اللغة في ثبوت هذا البيت منه، وعلى فرض ثبوته كيف ساغ لكم أن تستدلوا بهذا البيت، فهو لم يثبت ثبوت التواتر؟ خطأٌ في خطأ، القاعدة أن كل من أعرض عن الوحي لا بد أن يتناقض، هذه قاعدة أساسية مسلَّمٌ بها.

ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي –هكذا يقول والد إمام الحرمين–، ذلكم الإمام الجليل الذي منَّ الله عليه في آخر حياته بعد أن خاض في علم الكلام فرجع إلى منهج السلف، فألف رسالةً مستقلة في الفوقية والعلو والاستواء وصفة الكلام إثبات الحرف والصوت، والرسالة مطبوعةٌ موجودةٌ ضمن مجموعة المتون المنيرية في الجزء الأول، أدعو طلاب العلم إلى قراءة هذه الرسالة، لا أدعوكم إلى قراءة كتاب ابن القيم أو ابن تيمية أو غيرهما من الأئمة المعروفين الذين كتبهم منتشرة، لأن بعض الناس في نفوسهم ترددٌ حول هؤلاء الأئمة، لكن الإمام والد إمام الحرمين خصوصًا عند الشافعية هو العلم الذي لا يحتاج إلى ترجمة، وولده حاول كمحاولة والده ولم يصل إلى حيث وصل والده، إمام الحرمين نفسه أبو المعالي، اقرؤوا رسالته النظامية التي أثنى فيها على منهج السلف وارتضاه، إلا أنه عند التحقيق لم يبلغ مبلغ والده، بل بقي مترددًا متأرجحًا، أما والد إمام

الحرمين أبو عبد الله ينبغي أن تقرؤوا رسالته في المجموعة كما قلتم لكم، ليتضح لكم المقام، ولتأخذوا هذه المسألة عن من تثقون فيه، الذين تركهم خلفه لم يتصوروا في نصوص الصفات إلا كما يتصورون في المخلوق، لذلك أوجبوا التأويل، أما هو فقد منَّ الله عليه فوصل إلى اليقين، وترك ما كان عليه وألف تلك الرسالة اللطيفة فسماها (نصيحة) أي نصيحةً لمشايخه وإخوانه وتلامذته.

هذا ما يتعلق بصفة الكلام، الصحيح الذي يدل عليه الكتاب والسنة والفطرة السليمة أن الله يتكلم إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، كلم بعض رسله، وخاطب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج، لا خلاف في أن الله كلمه وخاطبه عند ما أوجب عليه الصلوات، وإنما يختلفون في الرؤية فقط، لم يختلفوا في أن الله كلمه وخاطبه، وسيتكلم الرب سبحانه وتعالى يوم القيامة يخاطب عباده عند ما يأتي لفصل القضاء، فصفة المجيء يوم القيامة لفصل القضاء من الصفات التي أولتها الأشاعرة وأوجبوا تأويلها.

انتبهوا مرةً أخرى: المجيء يوم القيامة لفصل القضاء وصفة النزول من ضمن الصفات التي أولتها الأشاعرة، وأوجبوا تأويل ذلك، فصفة الكلام إنما كررنا فيها القول لما سمعتم من اضطراب القول في هذه الصفة.

والصفة الثانية التي كثر فيها اضطراب الأشاعرة وخالفوا فيها نص الكتاب والسنة وسلف هذه الأمة: صفة الاستواء والعلو، فنحن نفرق بين العلو وبين الاستواء، العلو صفةٌ ذاتية بمعنى إن الله سبحانه وتعالى لم يزل في علوه، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، فهو في علوه، ولا يزال في علوه، فنزوله فقربه فمجيئه لا ينافي علوه، لأن علوه كما يليق بالله، أما صفة الاستواء فصفة فعل، كما أن المجيء صفة فعل والنزول صفة فعل كذلك الاستواء على العرش صفة فعل، أما تلك فصفة الذات (العلو).

بالغت الأشاعرة في نفي هذه الصفة حتى بالغوا أكثر من المعتزلة، فلحقوا بالجهمية؛ الجهمية هم الغلاة، الأشاعرة في صفة العلو والاستواء والفوقية هم جهميةٌ محضة، لماذا؟

لأننا قرأنا ولعل فيكم من قرأ في العقيدة السنوسية التي لا ينبغي لطالب علمٍ عندهم أن يتركها بلا حفظ، بل ينبغي أن يحفظها، العقيدة السنوسية يقول مؤلفها: ليس الله فوق العرش ولا تحت العرش، ولا على يمين العرش، ولا على شمال العرش. أين الله؟ عند الأشاعرة إما أنه ليس بموجودٍ أو أنه موجودٌ في كل مكان، جهميةٌ محضة دخلت على الأشاعرة، الأشاعرة يحرمون الإشارة الحسية إلى السماء، فيصرح بعضهم من أشار إلى العلو واعتقد أن الله في العلو يكفر، ومن أشار بدون اعتقادٍ جريًا على العادة يُفسق ولا يُكفر، لكن أظن أن كلكم تحفظون خطبة رسول الله عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع وما قال فيها، عند ما سأل الصحابة: أنتم مسؤولون عني يوم القيامة فماذا أنتم قائلون؟ -أو كما قال عليه الصلاة والسلام-، فقالوا: نشهد بأنك قد بلغتَ وأديت، ثم قال عليه الصلاة والسلام: اللهم اشهد، اللهم اشهد، يرفع إصبعه إلى الذي فوقه وفوق كل شيء وهو الله، فيشهده على الصحابة الحجاج، على أنه بلغهم.

وإذا جاء في وقتٍ متأخر بعض من تأثر بعلم الكلام وهو لا يعرف من السنة شيئًا، أو لا يؤمن بها، فقال: لا تجوز الإشارة الحسية إلى السماء، ومن أشار بالإشارة الحسية إلى السماء معتقدًا بأنه في العلو فهو كافر، هل معنى هذا أليس هذا القائل حكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكفر؟ وهل هناك كلامٌ أشنع من هذا وعقيدةٌ أضل من هذه العقيدة؟ لا.

هنا يرد سؤال: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في غير موضع من مؤلفاته بأن الأشاعرة أقرب طوائف علماء الكلام إلى منهج السلف، ما معنى هذا؟ ومن كانت هذه عقيدتهم في صفة الكلام وفي صفة العلو كيف يكون أقرب إلى منهج السلف وإلى الحق؟

الجواب: المسألة نسبية، شيخ الإسلام نظر إليهم في باب الاعتقاد بصفةٍ عامة، لا في باب الأسماء والصفات فقط، بمعنى أن هناك من لا يؤمن بنصوص المعاد، يؤولون نصوص المعاد كالباطنية، ومنهم من لا يثبت ولو صفةً واحدة من صفات الرب كغلاة

الجهمية، إذا قارنا بين الأشاعرة وبين الباطنية وبين الجهمية وجدنا أن الأشاعرة يثبتون كثيرًا من الصفات.

بالمناسبة؛ القول بأن الأشاعرة لا يثبتون إلا سبع صفات كلامٌ غير محرر، بل يثبتون أكثر من سبع، إذًا بالنسبة للباطنية والجهمية بل والمعتزلة الذين ينفون جميع الصفات نقول: نسبيًا هؤلاء أقرب، لكن بالنسبة لمفردات بعض الصفات كصفة الكلام وصفة العلو فهم أبعد من السنة وأبعد من الحق، وليسوا قريبين من الحق في هذه الصفات.

الكلام في بعض الصفات كالكلام في البعض الآخر، ومن يفرق بين الصفات وهي ثابتةٌ بالكتاب والسنة يعتبر ذلك خروجًا على الكتاب والسنة، وعدم احترام النصوص، وعدم احترام وتقدير من نزّل النصوص حق قدره، وفي ذلك تلبيسٌ للعقول، حتى تجاوزت العقول حدودها، فالعقول معتبرة وهي التي بها التكليف، لا يستهان بالعقول وبالأدلة العقلية، إلا أن للعقول حد يجب ألا تتجاوز العقول حدها، أما إذا تجاوزت العقول حدها وخرجت على النصوص، واعتُبرت النصوص فضلة ليست عمدة، بل العمدة الأدلة العقلية، هذا هو الضلال المبين، هذا هو ما يؤخذ على الأشاعرة.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.